قضايا الالتزام في الشعر الجزائري الحديث (محمد العيد آل خليفة أنموذجا)

ملخص

لقد شاع مفهوم الالتزام في الخطاب الأدبي والنقدي الغربي والعربي الحديث منذ عدة عقود، ولا يزال من المفردات المغوية ، وإذا بحثنا عن مصدر هذا اللفظ أو ما يقابله في تراثنا العربي نرى أنه ممصطلح قديم لأن التاريخ الأدبي يروي لنا مكانة الشاعر في القبيلة، وفاعلية الكلمة في المجتمع.

ولئن اتخذ مفهوم الالتزام في الغرب – في العصر الحديث- حدودا رسمتها له المذاهب الأدبية والفلسفية كالواقعية الاشتراكية والوجودية، فإنه في الأدب العربي كان ضرورة أملتها ظروف المجتمعات العربية الخاضعة للاستعمار على الأدباء، الذين رأوا أن للفن رسالة لا تقرُ عين الأديب إلا بها، فسيطرت عليهم هذه الفكرة إلى درجة أنهم تخلوا عن قضاياهم الذاتية ، و ضحُّوا بمشاعرهم الشخصية ،وتفرّغوا لقضايا الوطن و الأمة ،وهذا ما سيوضحه هذا البحث المتعلق بأحد شعراء الحركة الوطنية الجزائرية وهو محمد العيد آل خليفة.

أ - إبراهيم لقان

قسم الآداب واللّغة العربية
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة
الجزائر

Abstract

The concept of commitment has widely spread in literary discourse and critics of the western world as well as modern Arab since several decades ago, it remains among the most attractive vocabularies, and if we looked for the source of this word or its equivalent in the Arab heritage we'll see that it's an old term because literary history tells us the status of the poet in the tribe, and the effectiveness of the word
in the community. And while the concept of commitment in western world has recently taken boundaries drawn by literary and philosophical doctrines like socialism and existentialism, it is in Arabic literature where necessity dictated by the conditions of Arab societies under colonialism, imposed on writers, who saw that art has a message and only by accomplishing it satisfaction is gained. This idea dominated them to the point that they have abandoned their self cases, and sacrificed their personal feelings, and held issues of the homeland and the nation, and this is what this research will display in relation to one of the poets of the Algerian national movement whose name is (Mohammed Laid Al- Khalifa).

مقدّمة

لقد شاع مفهوم الالتزام في الخطاب الأدبي والنقدي العربي الحديث منذ عدة عقود، ولا يزال من المفردات المغوية للبحث، فلقد قيل الكثير عن حرية المبدع، ووظيفة الإبداع وإذا بحثنا عن مصدر هذا اللفظ أو ما يقابله في تراثنا الأدبي القديم، فإننا نجد أن النقاد قد لامسوا هذا المفهوم عبر شبكة هائلة من الألفاظ، ولكن ليس بغرض التأصيل كما هو الشأن في العصر الحديث، فقد سجل الشعر الجاهلي حياة العرب وكان ديوان مفاخرهم

وصور حياتهم، وروى عاداتهم وتقاليدهم، وعكس أحوال معيشتهم في صدق تام. ولا شك أن الباحث في هذا الميدان لا يعدم نماذج حية من ذلك، وعلى سبيل التمثيل لا الحصر فإن الشاعر (عمرو بن كلثوم) دخل التاريخ بقصيدة واحدة تناقلتها الألسنة وغنتها القوافل،جيئة وذهابا.

الالتزام في اللغة

جاء في لسان العرب أن الكلمة مشتقة من الفعل لَزِمَ، يقال:"لزم الشيء يلزمه لزما ولزوما،ولازمه ملازمة ولزاما ،وألزمه إياه فالتزمه، ورجل لُزْمة يلزم الشيء فلا يفارقه، واللزام الملازمة للشيء والدوام عليه، والالتزام: الاعتناق"[1].

وقد وردت الإشارة إلى هذا المعنى في القرآن الكريم أكثر من مرة، قال الله تعالى: "قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذّبتم فسوف يكون لِزاما". سورة الفرقان، الآية99.

ومعنى الآية (قل ما يعبأ بكم ربي) أي لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن بن عباس في قوله (قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم) يقول: لولا إيمانكم، وأخبر تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجة لحبّب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين. وقوله: (فقد كذبتم) أي: الكافرون (فسوف يكون لزاما) أي: فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم، يعني: مقتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة.[2] و قال تعالى: " وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه...". سورة الإسراء، الآية 13.

ويتماشى الالتزام مع سنة الله في الكون الذي لم يخلق شيئا عبثا، فإن كانت الكلمة مسئولية وأمانة فإن الأدب الذي مادته الكلمة لا بد أن يكون ملتزما بأداء هذه الأمانة في الحياة: " ما يَلفظُ من قول إلا لديه رَقيبٌ عتَيد". سورة ق الآية 18. أي ما يتكلم من كلام يلقيه من فيه إلا وكان هناك ملك يسجله له ليثاب عليه، أو ليعاقب.

الالتزام في الاصطلاح

لقد كثرت تعريفات الأدباء والنقاد للالتزام، يعرفه مجدي وهبة وكامل الخطيب فيقولان: إن الالتزام هو "اعتبار الكاتب فنه وسيلة لخدمة فكرة معينة عن الإنسان لا لمجرد تسلية غرضها الوحيد المتعة والجمال"[3].

وجاء في المعجم الأدبي أن مفهوم الالتزام هو: "حزم الأمر على الوقوف بجانب قضية سياسية أو اجتماعية أو فنية، والانتقال من التأييد الداخلي إلى التعبير خارجيا عن هذا الموقف بكل ما ينتجه الأديب أو الفنان من آثار"[4]. وهذا يعني أن الالتزام ليس

مجرد تأييد نظري للفكرة، وإنما هو سعي إلى تحقيقها، فليست الغاية أن نطلق الكلمات بغية إطلاقها.

والأديب الملتزم هو- على حد تعبير الدكتور محمد مندور- " المقدر لمسؤوليته إزاء قضايا الإنسان والمجتمع في عصره"[5].

ونستنتج من التعريفات السابقة أن الالتزام يعني إحساس الأديب بالمسؤولية تجاه فكرة آمن بها وعزم على الدفاع عنها عن قناعة تظهر في نتاجه الأدبي.

وقد اتخذ الالتزام في الغرب حدودا رسمتها له المذاهب الأدبية والفلسفية، كالواقعية الاشتراكية والوجودية، فبعد ظهور الواقعية الاشتراكية أصبح أساس الابتكار الفني هو إدراك الفنان للحقيقة الموضوعية، لا الخيالية الذاتية الشخصية. والذي يقرر درجة الإنتاج الفني في الأدب الواقعي هو قدرة الصورة الفنية على دعم الحياة الاشتراكية[6].

ففي فلسفة (كارل ماركس1818-1883) (Karl Heinrich Marx) يبقى الأدب والفن قوة اجتماعية فاعلة ذات تأثير عظيم في المجتمع، ولهذا السبب اعتبر الماركسيون "أن الأدباء هم مهندسو الأرواح البشرية"[7]. وعلى ذلك فالفن يكون ملتزما من الوجهة الشيوعية إذا عرف مساره الحقيقي أي إذا تدخل في المجتمع كقوة ثورية تعمل على منحه العطاء الثوري. كما يرى الماركسيون أن " الأثر الفني تتوقف أصالته ونبله على مدى إسهامه وتعمقه في الحياة الطبيعية، وكذلك الحياة الاجتماعية ".[8]

وقد ازدادت فكرة الالتزام تبلورا مع الوجوديين، وأبرز الممثلين لهذا التيار، وأكثرهم غوصا في هذه القضية هو الفيلسوف الفرنسي (جان بول سارتر -1980 1905) (Jean Paul Sartre) الذي يرى أن الكاتب الملتزم هو من ينقل الالتزام من حيز الشعور الغريزي إلى حيز التفكير، ويلعب دور الوسيط، بل إن التزامه يكمن في هذه الوساطة، ومن الحق أن يحاسب في إنتاجه على أساس حالته في المجتمع، وحالته لا تنحصر في كونه إنسانا وكفى، بل إنسانا وكاتبا مفروض عليه أن يختار لنفسه على أساس ما حدده الآخرون، فالمجتمع يحاصر الكاتب ويقيد مكانته، يقول (سارتر): "وإنما أسمي الكاتب ملتزما حينما يجتهد في أن يتحقق لديه وعي أكثر ما يكون جلاء...أي عندما ينقل لنفسه ولغيره ذلك الالتزام من حيز الشعور الغريزي الفطري إلى حيز التفكير. والكاتب هو الوسيط الأعظم، وإنما التزامه في وساطته. غير أن من الحق أن نحاسبه في إنتاجه على أساس حالته في المجتمع، وعلينا أن نكون على ذكر من أن حالته لا تنحصر في أنه إنسان وكفى، بل وفي أنه- على وجه التحديد-كاتب أيضا، فقد يكون يهوديا أو تشيكوسلوفاكيا أو من أسرة من أسر الفلاحين، ولكنه كاتب يهودي، وكاتب تشيكوسلوفاكي، ومن أرومة ريفية. حينما حاولت في مقال آخر أن أحدد حال اليهودي لم أجد غير هذه العبارة، اليهودي إنسان ينظر إليه الآخرون على أنه يهودي، فمفروض عليه أن يختار لنفسه على أساس ما حدده الآخرون له من موقف"[9].

فالالتزام من وجهة نظر الوجودية يقوم على تحديد علاقة الإنسان بالآخرين مع ملاحظة أن هذا التحديد تحيط به مجموعة من القيود تقلل من مجال هذا الاختيار، فالإنسان مثلا لا يختار مولده ولا أسرته ولا بيئته ولكن هناك التزاما في موقف يتبعه إدراك واع لكثير من القيم الإنسانية والاجتماعية، ثم يتجاوز المرء هذا الموقف ليعمل على تغييره لما هو أفضل ·

والالتزام ليس هو الإلزام "فإن الالتزام شيء والإلزام شيء آخر، فالالتزام يعني حرية الاختيار وهو يقوم على المبادرة الايجابية الحرة من ذات صاحبه مستجيبا لدوافع وجدانية نابعة من أعماق نفسه وقلبه... ولعل هذه الحرية هي التي تضفي على الالتزام معنى الشعور بالمسؤولية[10]· أما الإلزام فتنبعث منه رائحة الإكراه والجبر الذي يتنافى مع مبدأ الحرية والاختيار، والإنسان بطبعه فيه نفور شديد من القسر والإرغام، وما يوضح معنى "الإلزام " بالإكراه ما جاء في القرآن الكريم حكاية على لسان "نوح" عليه السلام في قوله تعالى:" قَالَ يَا قَومِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُون"· سورة هود: الآية 28.

إن الالتزام لا يعد بدعة في الشعر، ولا يتعارض مع نزعتي الفكر والجمال فيه طالما ظل متحررا من قيود الانغلاق وهيمنة السلطة، إذ ليس من المعقول أن يبقى الأديب أو الشاعر سابحا في الخيال، غارقا في ذاته دون أن ينصهر في واقع مجتمعه وأمته.

إن الأدب وإن كان صاحبه يعبر عن ذاتيته، فلا بد أن يكون في الوقت نفسه مرتبطا بمن حوله ينبض وجدانه بهمومهم ويخفق قلبه بآمالهم " إنه الجانب الإيجابي من علاقة متبادلة بين الشاعر والمجتمع"**(11)**

ومهما تكن المعاني التي تضمنتها كلمة "الالتزام"، فإنها لا تخرج عن إطار تبني الأديب موقفا فكريا يكرس فنه لخدمة مجتمعه مع تحمل تبعات ما ينجم عن ذلك.

ولا شك أن الشعر الجزائري في فترة الحركة الوطنية قد سيطرت عليه هذه الفكرة إلى درجة أن بعض الشعراء تخلوا عن قضاياهم الذاتية، وضحّوا بمشاعرهم الشخصية، وتفرغوا لقضايا الوطن و الأمة.

ولا ريب أن الدارس للشعر الجزائري في تلك الفترة خاصة شعر محمد العيد آل خليفة حين يستقرئه - أو معظمه- سوف يلاحظ وضوح هذه الفكرة، ويكتشف التزام الشاعر بقضايا وطنه وأمته وتكريس ملكته الشعرية من أجلها "وقد كان محمد العيد من الشعراء الذين يؤمنون بأن للفن رسالة لا تقر عين الأديب الملتزم بقضايا وطنه وأمته ولا يهدأ له بال، إلا إذا رأى أن نتاجه مسخر لخدمتها".[12]

ولم يكن هذا العقد الاجتماعي بين الشاعر ووطنه وأمته ناتجا عن توجيه سلطوي فوقي قَهَرَ صوت الفرد الذي يحاول الظهور والتعبير عن نفسه، بل لأن صوت الوطن

والأمة كان أقوى وأكثر إلحاحا على الشعراء كي يستمعوا إليه، وقد عبّر عن هذا الأمر أحد شعراء تلك المرحلة، وهو اللقاني السائحي:

فمن صوت البلاد لنا نداء يكاد المرء يسمعه أنينـا [13]

فقد كانت الجزائر آنذاك تحت سلطة القهر الاستعماري، وأدرك محمد العيد أن ما يقوم به ناتج عن إيمانه بقضية الوطن الجريح الذي يبحث عن مخرج من مآله، فيقول: "إن المجتمع في تلك الفترة فرض علينا أن نطرق مواضيع معينة ولذا جاءت أشعارنا توجيهية تربوية اجتماعية".[14]بهذا القول يختصر الشاعر حقيقة التزامه، ورؤيته الواضحة لرسالة الشعر في الحياة، وإيمانه بأن الشعر ذو هدف يسمو به عن المآرب الشخصية ليصبح عاملا من عوامل التغيير والتطوير والبناء الحضاري.

ومن ثمة كان محمد العيد يرسم لشعره الخطة نحو أهداف معينة، وإذا لاحظ أن هذه الأهداف تحققت فإنه يعود ليرسم خطة ثانية لبلوغ أهداف جديدة.

قضايا الالتزام في شعر محمد العيد

تتجلى الروح الوطنية الملتزمة في أشعار محمد العيد[15] – معظمها- وبشكل واضح، إذ تشيع فيها روح الثورة والإباء ولا تكاد تفوته مناسبة وطنية أو قومية دون أن يكون لها نصيب من شعره، فهو مسكون بقضايا شعبه وأمته ،وهمومهما هي التي تحرك وجدانه وأحاسيسه، مما جعل أشعاره سجلا لأحداث وطنه وأمته، وترجمانا صادقا لمشاعر شعبه و أمته، وقد عبر عن هذه الحقيقة (محمد البشير الإبراهيمي): "رافق شعره النهضة الجزائرية في جميع مراحلها، وله في كل ناحية من نواحيها وكل طور من أطوارها وفي كل أثر من آثارها القصائد الغر، والمقاطيع الخالدة، فشعره – لو جمع- سجل صادق لهذه النهضة، وعرض رائع لأطوارها"[16]. ونعرض في ما يلي أهم القضايا التي تجسد التزام الشاعر بقضايا الوطن والأمة.

1- حب الوطن والدفاع عنه

لا ريب أن شعر محمد العيد يحمل في طياته آمال بلاده وآلامها ومن يطالع شعره يقف على هذه الروح الوطنية فهي تظهر في قصائده بشكل جلي، فالجزائر وطن ذو طبيعة ساحرة حباها الله بثروات باطنة وظاهرة، جعلتها مطمع الطامعين، فوقعت فريسة للاستعمار، ومن واجب الشاعر أن ينبري مدافعا عنها في وقت مبكر، يقول في قصيدة بعنوان: من للجزائر؟ نشرت بالشهاب سنة 1933:

يا شاهدا سمر الهــدا ة بلغت في الدنيا الأمل
الصـادقون هنا فثـق والعاملون هنــا فسل
شرع الكلام إلى مـدى يـا قوم فالعمل العمل
الشعب منحل العـرى خزيان مختـلف العـلل

ضربت على يده القوى وفشت بجانبه الحيل
من للجزائر يفتد يها من سفه السفل
يا مشهرين من العزائم مثل مرهفة الأسل
خوضوا بها الأمواج واعـ لوا الشهب واقتلعوا القلل
من قال جل عدوكم قولوا له المولى أجل[17]

فهذه القصيدة دليل على ما وصل إليه الشعور الوطني و الوعي الثوري المبكر لدى الشاعر، وقد تحدث فيها عن دور (جمعية العلماء المسلمين) في تعبئة النشء للثورة، وتدرجها من مرحلة القول-حين ينفع الكلام-إلى مرحلة الفعل حين تعجز اللغة، كما أشار فيها إلى حالة الشعب الذي دب بينه الخلاف لدرجة أن ضل السبيل، وفقد الشعور بالذات فتمكن منه العدو، ثم يستنهض الشاعر هذا الشعب-وهو واثق- لفداء هذا الوطن واقتلاع جذور الاستعمار.

ويزداد حب محمد العيد لهذا الوطن ويقوى بجوانحه مع مرور الأيام، فيصرخ بصوت عال بأنه سيدافع عنه ويفديه بالنفس والنفيس، يقول في قصيدة:استوح شعرك سنة1937:

يا موطنا لي خصبه و نعيمه وله هواي على المدى وتشيعي
ما زال حبك ناشئا مترعرعا فيّ ناشئ بجوانحي مترعرع
أقسمت لو خيرتني في مصرعي ما اخترت إلا في سبيلك مصرعي
اسأل أجب،وأمر أطع،واصرخ أغث واصفح أنب،واسمع أقل،وانصح أع[18]

ويتجلى التزام الشاعر في هذا التعلق الشديد بالأرض الذي يعني فطرة الانتماء إلى وطن حرّ، يرى محمد العيد وجوده مرهونا بحياته، ويشعر في أعماق ضميره أن الالتزام الحقيقي يتجلى في تحويل القول إلى فعل فيُقسم – وأي أسلوب أقوى من القسم؟- أنه لن يتوانى في الدفاع عنه، وتقديم نفسه فداء له.

ويتدرج الوعي الوطني لدى الشاعر، ويتجلى التزامه الثوري بشكل أكثر وضوحا بعد أحداث الثامن ماي 1945م، في هذه القصيدة التي نشرت سنة 1950م بجريدة المنار، والتي يدعو فيها الشاعر الشعب إلى استنهاض العزائم، واغتنام الفرصة لتحطيم قيود الاستبداد ودفع الظلم، وتحقيق الاستقلال لينعم الوطن بالحرية ويحتمي بجيش قوي، وتلك هي مهمة الأدباء " إن مهمة أصحاب الكلمة ليست أن يقاتلوا –وقد يفعلون- بل أن يصوغوا وجدانات المقاتلين، وهذا هو دورهم الخطير". [19] يقول الشاعر:

حثوا العزائم واصدقوا الآمالا إن الزمان يسجل الأعمالا
يا قوم هبوا لاغتنام حياتكم فالعمر ساعات تمر عجالا

الأسر طـال بكم فطال عناؤكـم فكّوا القيود وحطّموا الأغـلالا

لا أمـن إلا في ظـلال مـرفـرف حـرٍّ لنـا ينـير هـلالا

من فوق جنـد بالعتيـد من القوى يلقى العدو ويصمد استبسالا[20]

ومن أمثلة الالتزام الوطني في شعر محمد العيد أنه استطاع أن يرقى بالحرية إلى آفاق رمزية، حيث تتحول الحرية والشوق إليها معادلا للشوق إلى الحبيبة، أو أن الحرية هي الحبيبة نفسها يغازلها الشاعر بطريقة رومانسية جميلة، يبدأ بالسؤال عنها سؤال الحيران المولـه بالحب، ثم يتساءل متعجبا كيف حيل بينه وبينها:

أيـن ليـلاي أينـــها حيل بينـي وبينهـــا

هل قضت دين من قضى في المحبـين دينـــها

أصلت القلب نارهـــا وأذاقتـه حينـــها[21]

ولاشك أن الضغط الاستعماري والاضطهاد الذي كان يمارسه على الشعراء كي يسكتوا هو سبب اللجوء إلى التمويه والتعبير الرمزي " والجدير بالذكر أنه إذا كان من أسباب التعبير عن المشاعر الوطنية بهذا النوع من الشعر، الميل إلى الرمز والتمويه، اتقاء اضطهاد المستعمر. بحيث لا يصرّح الشاعر بتعلقه بالجزائر أو بقضية وطنية مثل الحرية ".[22] وعلى كل حال فإن الشاعر استطاع إلى حد ما أن يجمع بين الواقع والرمز وأن يصور شوقه وتعطشه إلى الحرية وأن يوصل ذلك إلى المتلقي.

2- الدفاع عن الدين الإسلامي

إن الدين الإسلامي بمثابة الدرع المنيع للأمة الإسلامية، حفظها من التفرق عبر العصور، ووقاها من الهزات، ودفع عنها كيد الكائدين وطمع الطامعين.وبفضله تم دحر الغزاة عبر أزمنة متعاقبة، وعلى مبادئه تم تأسيس دولة عظيمة مرهوبة الجانب .

وقد تمكن الاستعمار من أن يعيث في الإسلام فسادا لتعدد الطرق المستعملة لذلك، فقد استعمل ساسته ومفكريه الذين يطعنون في هذا الدين ويتهمونه بالقصور، واستعمل طبقة من الجزائريين تنكرت لأصالتها وانسلخت عن ماضيها، كما استعمل فئة من أدعياء الدين ممثلة في بعض الطرق الصوفية، فكانت نعمة عليه نقمة على شعبها بما أحدثته في الدين من بدع، وبما بثته في الشعب من معتقدات فاسدة، وفكر ميت، وهو ما دفع الإبراهيمي إلى أن يصفها بأنها هي الاستعمار ذاته: "إن المرابطية هي الاستعمار في معناه الحديث المكشوف، وهي الاستعباد في صورته الفظيعة"[23].

وبتعدد جبهات الفساد كان لزاما أن تتعدد جبهات محاربته، وكان أكثر الشعراء تألقا في هذا المجال، محمد العيد آل خليفة الذي انبرى للدفاع عن الإسلام، ودعا الشعب إلى العض عليه بالنواجد. يقول في قصيدة (صدى الصحراء) سنة 1924:

أفيقوا فهذا الدين بين ربوعكم تنازله الأحداث شر نـزال

تحاول نكباء الضلالة نسفه وترميه أشلاء الردى بنبـال

فقوموا مقامات الدفاع حياله ليأمن هذا الدين كل ضلال [24]

فمن مسؤولية الشاعر أن ينبه الناس من غفلتهم و يوقظهم من سباتهم لتنفتح أعينهم على المؤامرة التي تحاك ضد الإسلام محاولة تشويه صورته للقضاء عليه، وهو صامد ينازل الأحداث، ثم لا يكتفي الشاعر بالتنبيه، بل يحثهم إلى الإقدام والدفاع عنه صامدين.

وقد كانت الأعياد والمواسم الدينية أفضل المناسبات عند محمد العيد، يستلهم منها الدروس والمواعظ، ويدعو إلى الالتزام بالدين الإسلامي والدفاع عنه، ففي قصيدة (تحية المولد النبوي) التي نشرت بجريدة النجاح 1929م، يبدأ الشاعر بالدعوة للاحتفال بهذه المناسبة الغراء، مبينا فضلها، ثم يعرض شمائل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوته وفضله على الناس، ويتوجه إليه طالبا الشفاعة، والنجدة للدين نظرا لما لحقه، فأرض الإسلام أهينت، ومقدساتها استبيحت، راجيا أن يُدرَك الإسلام من أعدائه، و هي – لاشك- مناجاة تحرك نفوس الناس لنصرة الدين:

أشكو إليك بما تجدد من أذى بعد التحاقك بالرفيق الأسعد

عصفت على الإسلام بعدك صرصر فتبدد الإسلام كل مبدد

وجرت بأرض المسلمين حوادث شتى كأمواج الخضم المزبد

أتذوق أمتك النكال مضاعفا من عابث في أرضها متمرد؟

أو لم تكن حصنا لها في كربها دنيا وعدتها يوم الموعد؟

فاشفع لها عند الإلـه وسل لها منه الأمان و عُذْ به واستنجد[25]

وقد خاض محمد العيد وهو يدافع عن الإسلام جبهتين: جبهة ضد الصليبيين الحاقدين على هذا الدين ، وجبهة ضد أعوانهم الطرقيين.

فعلى صعيد الجبهة الأولى أظهر الفرنسيون حقدا دينيا كبيرا خلال الفترة الاستعمارية، فقد قال الكاردينال (لافيجري 1825–1892) (Charles Martial Lavigerie):"علينا أن نحرر هذا الشعب، ونخلصه من قرآنه...ثم أضاف عن الجزائريين:"فإن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر"[26].

ونشر (آشيل) [27] مقالات في جريدة (الديبيش القسنطينية) la dépêche de (Constantine) متحاملا فيها على الإسلام والمسلمين، وكان لهذا التحامل على الإسلام أثر كبير على الجزائريين، فقد ردّ محمد العيد على المعمر (آشيل) بقصيدة طويلة جاء فيها:

هيهات لا يعتري القرآن تبديل وإن تبدلت تورات وإنجيـل

قل للذين رموا هذا الكتاب بما لم يتفق معه شرح وتأويل

هل تشبهون ذوي الألباب في خلق إلا كما تشبه الناس التماثيل

فاعزوا الأباطيل للقرآن وابتدعوا هيهات لا تجدي الأباطيل[28]

فبعد إقرار الشاعر باستحالة التأثير على القران أو تحريفه كما حرف اليهود والنصارى التوراة والإنجيل، يُعرّض الشاعر بأعداء الدين فيرسم لهم صورة ساخرة فهم تماثيل صماء ليس لها من خصائص الآدمية إلا الشكل، ويتحداهم بأن ينسبوا إلى الإسلام ما شاءوا، فلن يزيده ذلك إلا قوة واستحكاما، ثم يلتفت محمد العيد إلى آشيل في مبارزة صريحة بكل جرأة:

ما بال (آشيل) في(الديبيش)يسخر من آيات محكمه لا كان (آشيل)

ما بال(آشيل) بزري المسلمين و هم غرّ العرائك إنجاب بهاليل

أفكارهم بهدى القرآن ثابتة فلا يخامرها في الرأي تضليل

أفكارهم بينهم شورى ودينهم فتح من الله لا قتل وتقتيل[29]

ففي الوقت الذي كانت كلمة الحق تجلب لصاحبها الموت المؤكد نلمس الجرأة عند الشاعر الأعزل من كل سلاح يتصدى بوجه صارخ (لآشيل) في أبيات كلها تهديد ووعيد، ويتهمه بالهذيان، ويدعو عليه بالهلاك، ولا شك أن القصيدة ليست موجهة (لآشيل) بعينيه وإنما للاستعمار.

أما الجبهة الثانية التي خاضها محمد العيد فهي جبهة الطرقية فقد تمكن الاستعمار من نفوس شيوخها واستمالهم إليه: "مغذيا فيهم روح التفسخ الديني والانحلال الخلقي مغدقا عليهم الأموال ليقيموا الحفلات والولائم، واستطاع بواسطتهم السيطرة على عامة الشعب الجزائري... فقد أصبح الدين في عرف أدعيائه تعبدا لا يقبل الجدل ولا النقاش، لا يقبل إلا التسليم، وأصبحت الحكمة السارية المجسدة لهذا الوضع المنحرف (اعتقد ولا تنتقد)". [30]

وأمام هذا الوضع، تبعية شعبية للطرق الصوفية المنحرفة، وتبعية طرقية للاستعمار، أصبح لزاما على الحركة الإصلاحية أن تقود حربا ضد هذا الوضع بوسائلها المعروفة، وترسانتها من الشعراء والكتاب والخطباء، وكان الشعر إحدى أدواتها، ووصل الصراع بين الطرفين إلى قمته فقد تعرض ابن باديس لمحاولة اغتيال عند خروجه من (الجامع الأخضر) بقسنطينة من طرف أحد أتباع الطريقة العليوية،[31] وخلاصة القصة: " أن مريدا من مريدي طريقة صوفية معروفة، اعترض سبيل الأستاذ الإمام ليلا، فانقض عليه بالعصا، ثم جرّد خنجرا أراد أن يقضي به على حياة الشيخ، ولكن الشيخ استطاع بإرادة الله وقوته أن يأخذ بتلابيب المعتدي ويديه، ويحول دونه وتنفيذ الجريمة التي انتدب إليها، إلى أن وصل بعض المارة، فأنقذوا الشيخ، وسلّموا المعتدي للسلطات، ثم عفا عنه الشيخ، وأعلن عفوه عنه أمام مسؤولي

العدالة آنذاك".[32] وكان لهذه الحادثة أثر كبير في أوساط الشعب، وخاصة المثقفين، الأمر الذي دفع محمد العيد إلى نظم قصيدة طويلة جاء فيها:

حمتك يد المولى وكنت بها أولى فيا لك من شيخ حمتـه يد المولى

وأخطأك الموت الزؤام يقوده إليك امرؤ أملى له الغي ما أملى

فيا لوضيع النفس كيف تطاولت به نفسه حتى أسر لك القتلا[33]

فبعد أن يهنئ الشاعر الإمام بالنجاة التي أحاطته بها الرعاية الإلهية، يبين أن هذا العمل الإجرامي لجأ إليه الضالون مدفوعين بالباطل بعدما أعوزتهم الحجة، ثم يلتفت إلى مرتكبي الجريمة حانقا متجاوزا الهدوء الذي عرف به واصفا إياهم بالأيدي الآثمة الشريرة التي يحركها المستعمر، ويتحداهم أن يأتوا بدليل يجيز فعلهم الشنيع، ويثبت لهم أن أعمالهم لا علاقة لها بالإسلام:

ولم يلبث الأشرار حتى تآمروا عليه فلم يألوه من شرهم خبلا

أرادوا به الفتك الذريع شماتة وما كان للفتك المراد به أهلا

فهل كان هذا شأن من يدعي التقى؟ وهل كان هذا شأن من يدعي الوصلا؟

أما كان إزهاق النفوس محرما على القوم أم ظنوا النفوس لهم حلا؟

إذا كنتم يا قوم بالحق قادة فأدلوا ببرهان إليه كما أدلى

تنخلتم يا قوم فعل محمد وما كان فيكم من يشبهه فعلا[34]

ولاشك أن ما كان يدفع محمد العيد إلى الوقوف أمام المتحاملين على الإسلام هو الوازع الديني الذي يقوى على غيره من المضامين الأخرى، لأنه أعطى هذا الجانب الاهتمام الكبير، فقد كان الشاعر جنديا مرابطا في صفوف الحركة الإصلاحية، تجمع بينه وبين روادها روابط متينة، فجاء شعره صورة أمينة وفية لحركة الإصلاح، فهو يضع ابن باديس في إطار باعث الشخصية الجزائرية، ومحاولة الاعتداء عليه هي اعتداء على هذه الشخصية وعمل لا يختلف عن فعل الاستعمار الذي يريد القضاء على الشخصية الوطنية.

3- الدفاع عن اللغة العربية

إن وحدة اللغة لأي شعب دليل على وحدته الفكرية والروحية، وإذا حرص هذا الشعب على لغته فذلك يعني تحقيق وجوده في الحياة، أما إذا أهمل الشعب لغته وفضل عليها لغة أخرى، أو فرضت عليه فهو في صنف العبيد لا يقدر على الاستقلال بنفسه، ولا يستفيد من ماضيه.

وقد تفطن المستعمر الفرنسي إلى هذه الحقيقة، وكان أول ما سعى إليه بعد بسط نفوذه على الجغرافية، أن استهدف اللغة العربية لأنه يعلم أن زوالها هو زوال لقومية

الشعب الجزائري، وطمس لمعالم تاريخه وتمزيقا لوحدته، فلا يعرف له أصلا ينتمي إليه، ومن ثم يصبح وجود المستعمر أمرا عاديا، لا تنغصه الحركات الوطنية.

وقد تحقق الأمر نسبيا للاستعمار، ففرض لغته على الجزائريين بمنطق القوة والقانون، وكوّن نخبة أثرت فيها اللغة الفرنسية كما يؤثر الجوّ الأجنبي في الجسم الذي انتقل إليه وأقام فيه، ولنستمع إلى أحد دعاة الإدماج: " أنه فتش عن القومية الجزائرية في بطون التاريخ فلم يجد لها من أثر، وفتش عنها في الحالة الحاضرة فلم يعثر لها على خبر، وأخيرا أشرقت عليه أنوار التجلي فإذا به يصيح: فرنسا هي أنا"[35].

وقد قيض الله للجزائر آناء هذا الوضع رجالا التزموا بمقاومة الاستعمار، واتخذّوا من اللغة العربية سلاحا للمنازلة، كان على رأسهم الشاعر محمد العيد آل خليفة، الذي كان أكثر الشعراء- في عصره- دفاعا عن هذه اللغة، ففي معرض رده على العدو وأتباعه المشككين في عروبة الجزائر، يقول :

تحن إلى نيل الحقوق نفوسنـا وتأبى علينا نيلها قوة الغشـم

ونقصى عن الفصحى ونلهى بغيرها وليس سوى الفصحى لسان لنا رسمي

وما نحن إلا من سلالـة يعرب فمن رام عنها فصلنا باء بالرغم[36]

بهذه اللهجة القوية المباشرة يعبر الشاعر عما تتعرض له العربية من اضطهاد، وعن رفضه لذلك، ويثبت للعدو أن الشعب الجزائري من سلالة عربية عريقة، وأن محاولة اقتلاعه من جذوره بإقصائه عن لغته ضرب من المستحيل وأمر مآله الفشل.

كما يتجلى تفاني الشاعر في الدفاع عن اللغة العربية في إعجابه الشديد بأهلها، وتحيته الحارة لكل من سعى إلى رفع شأنها على مر العصور من العرب أو من غيرهم يقول في قصيدة (إلى العلم):

سلام كأزهار الربى طيب الشدى على كل قح في عروبتـه شهـم

على العرب الأحرار من كان عاربا ومن بادَ قِدما من جديس و من طسم

ومن كان في استعرابه لاحقا بهم نزوعا إليهم في الفصاحة والفهـم

ومن أتقنوا الفصحى وراضوا علومها بحذق فكانوا من صوار مها الخذم[37]

وهذا الارتداد إلى ماضي العربية السحيق يدل على أن الشاعر ضليع في تاريخ اللغة العربية، وأنه على يقين أن اللغة التي صمدت في وجه العواصف عبر العصور بفضل رجالها، قادرة اليوم على الاستمرار بفضل أمثالهم.

وانسجاما مع ما ارتضاه الشاعر لنفسه، من تحمل مسؤولية الدفاع عن اللغة العربية، فهو "لا يترك فرصة يرتفع فيها صوت الضاد إلا واهتز لها طربا، وتغنى بها شعرا، وانفلت من دوامة الوجوم إلى أفق ملؤه البشر والحبور، وحطم سياج التشاؤم

لينطلق بأجنحة من الأمل الباسم"[38]. يقول حين أصدر الشيخ محمد الصالح الصديق كتابه (أدباء التحصيل) وأهداه نسخة منه :

حلل فإنك باحث منطيق وانقد فإنك بالصواب خليق

وانهج لناشئة الجزائر منهجا حرا بأحرار العقول يليق

واكشف لهم أدب العروبة إنه عنهم خفي كالسهى وسحيق [39]

وبعد أن ينوه بمؤلف الكتاب، ويشيد بجهده الذي جاء في وقته المناسب، يتحدث عن حالة اللغة العربية - وملؤه الأسف - كيف جف معينها بسياسة التجهيل الاستعمارية، وكيف عقها أهلها، ويكاد يصاب باليأس، لولا أنه يجد عزاءه في بصيص من الأمل، ينبعث من أقلام ثلة من النشء الناهض على يدي جمعية العلماء يحدوه الأمل، ويدفعه العمل إلى إحياء هذه اللغة وإعادة مجدها يضيف الشاعر:

أسفي على الفصحى تحول نبعها وشلا وكدّر صفوها الترني

صدئت جواهرها وغاب ضياؤها لولا بصيص نادر وبريق

يبدو على أقلام نشء ناهض واعٍ كمثلك دأبه التحقيق[40]

تلك صورة من صور المقاومة، والكفاح المرير الذي خاضه الشعر العربي اللسان، منذ الحرب العالمية الأولى حتى بزوغ الاستقلال: " لقد اهتم شعراء الجزائر بالعربية أكثر من زملائهم بالفرنسية في تأكيد عروبة بلدهم، وكانت العروبة الحاجز الأكبر بينهم وبين المستعمر".[41]

4- البعد القومي

ظهرت بوادر الشعر القومي في أواخر العهد التركي إذ كان يعبر عن آمال الأمة العربية في التحرر والاستقلال "وقد وجد الإنسان العربي في الأدب صدى وجدانه وحياته وواقعه، وبذا استجاب الأدب العربي الحديث، على اختلاف فنونه، لهذا التطور الخلاق في النفس العربية النزّاعة إلى الواقع، فكان الشعر الاجتماعي والقومي والوطني يشكل أبرز ظاهرة فنية في نتاجنا الأدبي الحديث ".[42]

ونعتقد أن محمد العيد هو أكثر شعراء الجزائر عناية بهذا الجانب، نظرا للحنين القوي الذي نجده في شعره إلى الشرق، والشرق عنده يعنى العروبة، والعروبة تعني الإسلام، ففي قصيدة نشرت سنة1936 يدعو المسلمين إلى نبذ الفرقة والشقاق الذي يراه مرضا يجب علاجه، لأن المسلمين مِلّة واحدة، وبسبب بعدهم عن دينهم فقدوا زمام أمورهم، وحادوا عن الحق، ولو عادُوا إليه لرأبوا صدعهم، وصاروا سادة العالم كما كانوا:

أرى داء الشقاق بنا تفشى فكيف يكون لنا منه التوقي؟

بني الإسلام خلّوا الخلف إنا إلى الإسلام نعزى دون فرق

ولو أنا على الحق اتفقنا لكنا قادة الدنيا بحق [43]

هذا الحنين إلى الشرق، وهذا الارتباط بالعروبة هو ما دفع بالشاعر إلى الإشادة بالماضي الذي يربط بين الجزائر والوطن العربي، والإشادة بالحضارة التي كان العرب أسبق من غيرهم إليها يقول في قصيدة أخرى بعنوان:(في أذن الشرق):

إن للعرب في الحضارة قِدما قديما للورى عليها استناد

كم وعوا في الحجاز من قبل روما وأثينا من حكمة وأفادوا

وعت الأرض كل ما عاد من عا دٍ عليها وشاده شدادُ[44]

5- فلسطين في شعر محمد العيد

تمثل فلسطين القلب النابض للعرب، مثلما هي الباعث الأقوى على النضال والتضحية، وهذه المكانة جعلت منها مصدر إلهام لكثير من الشعراء العرب ومنهم شعراء الجزائر "ولسنا في حاجة إلى أن نعدد الروابط التي تربط بين فلسطين والجزائر...كما أننا لا نحتاج إلى أن نضرب أمثلة للمقارنة بين حالة الجزائر وحالة فلسطين".[45] أما بالنسبة للشاعر محمد العيد فإن قضية فلسطين في مراحلها المختلفة هي: "قضية الشعب الجزائري بكل ما يعانيه من كبت وعزلة، وكانت الحروب التي تدور في فلسطين تحفز الجزائريين وتدفعهم إلى التطوع والتبرع وحمل السلاح كما تدفع بالشعراء إلى تبني هذه المعارك".[46]

ففي قصيدة (استوح شعرك) التي ألقاها الشاعر سنة 1937، يطلب من الجزائر أن تشد جناحيها لنصرة القدس المروعة التي تئن تحت وطأة الظلم:

هلا أغثت القدس منك بلفتة غيرى على شعب هناك مروع

القبلة الأولى تضج وتشتكي من قسمة المستأثر المستنفع

ضمي احتجاجك لاحتجاج حماتها واستنكري تقسيمه و استفظعي[47]

وفي قصيدة (بلادي) التي ألقاها سنة 1937 يعرج على حال الأمة مشرقا ومغربا، وكيف صارت ممزقة الأوصال، ويشير إلى بيت المقدس الحزين وإلى الفظائع التي يرتكبها آل صهيون:

وفي المقدس الباكي الحزين فضائع توالت وأنكاد طغت ومآثم[48]

وبعد النكبة سنة 1948 يدعو الشاعر فلسطين إلى الصبر، وتعليق الأمل على أبناء الأمة، الذين ينتظرون النداء لينقضوا على الأعداء، فيقطعوا دابرهم:

فلسطين العزيزة لا تراعي فعين الله راصدة تراعي

وحولك من بني عدنان جند كثير العدّ يزأر كالسباع

إذا استصرخته للحرب لبى وخف إليك من كل البقاع[49]

هذه هي فلسطين في نظر الشاعر، لم تلهه قضايا وطنه الجريح عن قضايا أمته العربية والإسلامية، التي كان يرى في وحدتها الملاذ الأخير للتحرر.

6 ـ الدعوة إلى نشر العلم

لقد أدرك محمد العيد أهمية العلم في نهضة الأمم، فدرس كيف تسرب الجهل إلى جسم الأمة، وكيف تكون محاربته، فكان جنديا في صفوف جمعية العلماء يمارس التعليم، وينشر العلم ، ويقرِّب منال المعرفة إلى الأفهام، ويحارب الجهل في النفوس، فاستحق أن يوصف بأنه " الإنسان الذي التزم في الشعر بأن يكون لخير الجزائر ونهضتها".[50]

فقد تجاوز محمد العيد أُطُر شعره الفنية إلى أداء الرسالة التي يُصلح بها مفاسد المجتمع، ويضيء بها حالك جوانبه، وأصبح هدفه تحقيق الهدف المنشود، وهو تنوير عقل الشعب بالمعارف، فقد جاء في جريدة البصائر ليوم 1935/12/27 قصيدة مطولة للشاعر بعنوان (ومن العلم للمواطن تاج)، وبعد أن يشير محمد العيد فيها إلى الحفل الذي جمع الشبيبة، مشيدا بالجهود البناءة المبذولة، يعرج على هموم الأمة، وما يعمها من فساد، ثم يخلص إلى الحديث عن العلم الذي ظهر عند الأعداء في شكل اختراعات واكتشافات تستصرخ النفوس الشغوفة بها مجسدة في وسائل لا غنى عنها ولا تقدم إلا بها من: برق، وراديو وغاز، ومنطاد.

إن في العصر آية لبني الشرق ولكنهم عن الذكر حادوا

نفخ الصور للقيامة في الأر ض وقامت من القبور العباد

ودوى العلم في السماوات والأر ض وردّت دويه الأبعاد

هتف البرق باسمك الخالد السا مي وحياك بالغناء الرادو

وغزا الغاز تحت بندك وأنطا د إلى أوج خلدك المنطاد[51]

ثم يتساءل الشاعر عما يصفِّد أمته، أهو الظلم الذي تعانيه، أم الوهم الذي سكن العقول، أم هو الخلاف الذي دبّ في أوصالها فأوقعها في جهل حالك لا مخلص منه؟:

إن أفكارنا تحاك الغشاوا ت عليها وتضرب الأسداد

أَمِن البغي فوقنا مرهفات ومن الوهم حولنا أصفاد؟

قد وقعنا يا علم في هوة الجهـ ل ولما يتح لنا الأنجاد[52]

ثم يلتفت إلى الشعب ويدعوه إلى السعي الحثيث ليطّرح الإهمال والجهل، والغفلة والتعب ويقوم بالحِرَف التي تغنيه:

أيها الشعب اعتد الكسب ذخـرا ليس بالكسب للشعوب عتاد
شاع فيك الإهمال والجهل والغفـ لة والفقر والضنى و الكسـاد
فـإذا قمت بالفلاحـة أثـرى في الألى أعدموا فيك سـادوا
وإذا قمت بالتجارة فيك أزرى الألى أسلموا الألى فيك هادوا(53)

وقد حز في نفس الشاعر أن يرى الجزائر- بلد الخيرات الباطنة والظاهرة- عاجزة تستجدي كساءها وأقواتها من فرنسا، لأنها لا تملك مقومات ذلك فأرسلها زفرة حادة:

غير حي على البسيطة شعب ليس فيه صناعة واقتصاد(54)

ثم يقارن بين العلم والجهل، بين القوة المادية المخربة، وبين القوة العلمية البانية، فيقول إن العلم هو سلطان الوجود وهو وسيلة السيادة والمجد، ومناعة الأوطان، ويرى أن أغلى ما يشيده الإنسان من حصون، وما يرفعه من قلاع يتمثل في المدرسة التي تنتج العقول، وفي المصنع الذي ينتج وسائل التنفيذ، أما الجهل فهو كالغراب الذي لا يحوم إلا على الخراب:

العلم سلطان العقول فسد بـه من شئت أو ذد عن حياضك وادفع
والجأ له بدلا الحصون فلا أرى حصنا كمدرسة سمت أو مصنع
قل للجزائر انشئـي كليـة تمحـو جهالـة شعبك المتسكع
الجهل غيم فوق أرضك ضارب غطى علـى أحيائهـا و الأربع
الجهل أشبه بالغراب فمـا لـه من منزل غير الخراب البلقـع(55)

7- مقاومة الفقر

ليس الجهل وحده هو الذي حال دون الشعب الجزائري والعلم، ولكن هناك أيضا الفقر، اليتم والأيتام، وكل مظاهر البؤس والحرمان والانحراف التي سببها الاستعمار، فجعل الشعب يعيش فقرا دائما أعوامه كسنين يوسف القاسية، لا أحد يجبر كسر الآخر، لأنه يشق عليه كسب الرغيف البسيط، أو الحصول على السترة الرثة. وفي المقابل يوجد أناس يتطاولون في العمران ولا ينظرون إلى من دونهم، لأنهم تبلد فيهم الحس وماتت المشاعر، فلا يعنيهم أمر الأمة ولا فقر الفقراء، فيصور الشاعر هذه المآسي سنة 1931 لعله يثير المشاعر الإنسانية في قصيدة منها:

فشا الجوع واشتد عسر المعاش وعادت سنو يوسف الغابرة
تفاقم كرب الفقير الكسيـر أما عندكم من يد جابـرة
يشق عليه الرغيف الطفيـف وتعوزه الخرقـة الساتـرة
فيا أيها الرافعون القصـور إلى الجو في الأمـة القاصرة

ويا أيها الوادعون النيام على الخز في السرر الفاخرة

ألا تذكرون حفاة عراة أصابهم الفقر بالفاقرة[56]

ويختم الشاعر القصيدة باستفزاز هؤلاء الأغنياء النيام عن المجد بآذانات تصدرها الجمعية الخيرية بالعاصمة برئاسة الشيخ العقبي، لتحفيز الناس على الجود لإنقاذ إخوانهم من العسرة، وتسجيل أسمائهم على صفحات الخلد:

لقد آن أن تستفز النيام آذانات خيرية باكرة

إذا صاح (عقبيها) للغياث أجابته عقبانها الكاسرة

إلى الوجود يا قوم فالمعوزون من الناس في عسرة عاصرة

فمن جاد ساد اسمه في الحياة وكان له الخلد في الآخرة[57]

8 ـ مقاومة الانحراف

لقد كانت الحركة الإصلاحية تهدف إلى تكوين الإنسان المتكامل جسما وروحا المتوازن، وهذا لا يتم إلا بعامل التربية التي تكون حاجزا بينه وبين شرور الحياة، ومن يلقي نظرة على الأخلاق العامة مع بداية الحركة الإصلاحية يصاب بالذعر، والذي يسبر أغوارها بتبصر ووعي يصاب بالرعب، انحراف عام شمل البنين والبنات، لهو و عبث في الأزقة، تعاطي خمر وزنى مكشوف وهو - والله - وضع يندى له الجبين، مجد ضائع مُضاع، ليس هناك قدرة على حفظه، وليس أدل على هذه الحال كمثل هذه الأبيات لمحمد العيد من قصيدة ألقاها سنة 1933:

يا لَمجد مضيع غير مجُـدٍ عض كف عليه أو قرع سن

قف معي بالجزائر اليوم واسبر غور أحداثها بعين وأذن

تجد الطفل في الأزقة يلهو والفتى يشرب الخمور ويزني

تجد الطفلة اليتيمة تشقى تحت خذر تنوء أو تحت خدن[58]

هذه الصورة القاتمة للوضع دفعت الشاعر إلى أن يقف موقف الملتزم نحو وطنه وشعبه، لا يكتفي بمجرد العويل، أو نقل الصور السوداء عن الوضع، وإنما يعمل على إصلاحها، وذلك بذكر كل آفة اجتماعية وما ينجر عنها، وكل سلوك وما يترتب عنه، ثم يرغِّب في الفضائل وينفِّر من الرذائل. وهذه طبيعة الشعر المسئول الذي لا يكتفي بتشخيص الداء وإنما باقتراح الدواء، يقول محمد العيد:

الخمر شربة رجس أمّ أرجاس الخمر صاعقة تهوي على الراس

الخمر فأس خراب هدمت أسرا مصونة عاث فيها صاحب الكاس

يا شارب الخمر ما ترجوه من درن للعرض،غول عقول،لص أكياس

فحطم الكأس واهجر كل رفقتها تعش سعيدا و تأمن ألسن النـاس[59]

9- إصلاح المرأة

لقد أدرك محمد العيد مكانة المرأة ودورها الخطير في المجتمع المتمثل في تنشئة الجيل وتربيه، فراح يحذر من خطر انحرافها الخلقي، ويبين أن ذلك هو السبب في تعثر خطى الإصلاح، فلا تقدم بدون مقاومته، واقتلاع جذوره ومنه سفور الفتيات وانحرافهن وتخليهن عن آداب ملتهن، وإعراضهن عن الإسلام ومبادئه السمحة، مقلدات النساء الغربيات. يقول في هذا الشأن:

ما بال سير فتاة العصر منحرفا يهوي بها في مهاوي الإفك والزور

ما بالها هجرت آداب ملتها ما بالها أعرضت عن خير دستـور

في كل مرحلة تزداد ظلمتها في الرأي فاقرأ عليها سورة النور[60]

وحين يستقيم أمر المرأة، يدعوها الشاعر إلى أن تقف إلى جانب الرجل، وأن تساهم في الجهاد فقد نادى المنادي لذلك:

ساهمي في الجهاد جند الجهاد وأعديّ الفدا لنصر البلاد

يا فتاة البلاد شعبك نـادى فاستجيبي بعزمة للمنادي[61]

10- عناية الشاعر باللغة والأسلوب:

لقد وقف محمد العيد من اللغة الشعرية موقفه من القضايا السابقة، فقد التزم لغة القدامى، وإن استعمل الشائع السهل الواضح منها، واحتذى الأساليب البيانية المشهورة، وهذا راجع إلى نظرته الوظيفية للغة كغيره من الشعراء الجزائريين "فقد اختاروا لشعرهم لغة شائعة وبسيطة، وتجنبوا الغريب والصناعة البديعية، واستعملوا الأساليب البيانية التقليدية دون إسراف".[62]

ويرجع السبب في احتذاء محمد العيد الأساليب القديمة والإطار الكلاسيكي لشعره، إلى ظروف عصره التي كانت أبعد من أن يستفيد من إفرازات الثقافة المعاصرة والسبب واضح "يتجلى في ضغط المستعمر الذي جعل من الأدباء والمفكرين يتخذون من التراث ثورة يواجهون بها الغزو بكل أنواعه، وعلى الأخص الغزو الثقافي". [63] لهذا فإن متصفح ديوانه يجد أن الشاعر لاذ بالقرآن الكريم ونهل من نبعه مفردات وتراكيب ومعان، يقول:

يقولون هل نقبت في الكتب باحثا فقلت لهم لم أقف آثار كاتب

فحولي كتب الله من كل شارق تزودني علما ومن كل غـارب

غنيت بها عن كل درس معذب وعن كل بحث في المراجع ناصب[64]

فالشاعر يقر في الأبيات السالفة أن أهم معين نهل منه هو القرآن الكريم الذي أغناه عن البحث والتنقيب في الكتب الأخرى، فطفح ديوانه بمضامين هذا المصدر الذي لا ينضب. ومن الأمثلة على ذلك قوله:

إذا كنت حزب الله سرا وجهرة فثق لأن حزب الله لابد ينصر[65]

فهذا البيت مقتبس من قوله تعالى: "أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحون" سورة المجادلة، آية 22.

كما اقتبس محمد العيد من التراث الأدبي واللغوي القديم، ووجد فيه ظلالا وارفة فاستمد منه ألفاظا ومعاني لمعالجة مواضيع حديثة، ومن أمثلة الشعر الذي يشبه معجم القصيدة القديمة بكل خصائصها الفنية قوله:

اليوم أسدي على نول من الأدب مطارفي من خيوط الشمس للشهب

اليوم أهدي تحياتي وموعـظتي إلى العباقرة الصـــيابة النخب

النازلين كقطر الغيث منسكبا في ظل قطر لهم بالبشر منسكب

الزاحفين لغارات النهى طلبــا والجامعين عليها الهم في الطلب[66]

فالنص يزخر بالكثير من الكلمات التي كانت متداولة في قصائد أبي تمام والمتنبي وغيرهما مثل

(مطارفي، خيوط الشمس، الغيث، النهى)، بالإضافة إلى قدرة الشاعر على التصوير التي تجلت في التشبيه المفصل (تشبيه العباقرة بقطر الغيث)، وفي طرق تحسين الكلام كالتصريع في البيت الأول، والجناس بين (قِطْر وقُطْر) و جزالة وقوة الألفاظ مثل (العباقرة، الصيابة، النازلين، الزاحفين).

وأخيرا، فهذا هو محمد العيد آل خليفة "شاعر ملتزم في كل شيء يستمد إلهامه وفنه من ثورة الشعب ونضاله، وعن طريق الكلمة المعبرة يقدم التزامه بمبادئ شعبه مبينا أن المفكر لابد أن يكون مؤمنا بإرادة شعبه، وانتماء الأديب إلى ثورته يجعله يضحي في سبيله وهذا ما بينه محمد العيد في كل موقف".[67] فكان صوت الشعب وعبر عن آلامه وآماله.

وهو شاعر ملتزم في موضوعات شعره، وفي لغته وأسلوبه، غزير في عطائه، مخلص في انتمائه، وقد جاء شعره واضحا في دلالته، عميقا في أصالته ، صادقا في تعبيره عن هموم شعبه وأمته، فلم يترك مناسبة وطنية ولا عربية إسلامية إلا كان لها من شعره القصائد الغر، ولم تتح فرصة للمجاهرة بالحقوق دون أن يغتنمها ويشارك فيها، ولو أدى به ذلك إلى السجن، فقد كان إنتاجه مشحونا بحب الوطن وبحب العروبة والإسلام، وهذا هو الالتزام بمعناه الأخلاقي الذي ينسجم مع فكر الشاعر وتوجهه العربي الإسلامي الذي رسمه لنفسه منذ قوله سنه 1936 في هذه القصيدة:

قف حيث شعبك مهما كان موقفه أولا فإنك عضو منه منحسم
تقول أضحى شتيت الرأي منقسما وأنت عنه شتيت الرأي منقسم
فكن مع الشعب في قول وفي عمل إن كنت بالرجل الشعبي تتسم[68]

الهوامش

1- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم): لسان العرب، ج12، دار صادر، بيروت لبنان، مادة لزم، ص ص541-542.

2- ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي): تفسير القرآن العظيم، المجلد الثالث، دار ابن حزم، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2002. ص2099-2100.

3- وهبة مجدي و الخطيب كامل: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، 1984م، ص58.

4- جبور عبد النور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،ط2، 1984م. ص31.

5 - وهبة مجدي و الخطيب كامل: المرجع السابق. ص58.

6- ينظر: طبانة بدوي : قضايا النقد الأدبي، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية ،1984 م.ص16.

7- أبو حاقة أحمد: الالتزام في الشعر العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1979. ص30.

8 - عيد رجاء: فلسفة الالتزام في النقد الأدبي، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر. 1988، ص131.

9- جان بول سارتر: ما الأدب، ترجمة محمد غنيمي هلال ، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1990. ص75/74.

10- أبو حاقة أحمد: المرجع السابق ص14.

11- إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد2، 1988. ص160.

12- ابن سمينة محمد: محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلية لحياته ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1992،ص112.

13- الزاهري محمد الهادي: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، المطبعة التونسية ط1، 1926. ص39.

14- ابن سمينة محمد، المرجع السابق، ص138.

15- هو محمد العيد بن محمد علي بن خليفة، من مواليد عين البيضاء سنة 1904، وفيها تلقى تعليمه الابتدائي، انتقل إلى بسكرة سنة 1918 حتى سنة 192حين غادر بسكرة متوجها إلى تونس حيث درس بجامع الزيتونة سنتين عاد بعدها إلى بسكرة ليشارك في النهضة العلمية والصحافية، فشارك بقلمه في الإصلاح، صدى الصحراء، الشهاب وغيرها. وفي سنة 1927انتقل إلى العاصمة معلما بمدرسة الشبيبة، وغادر العاصمة في سنة 1940 متنقلا بين باتنة وعين مليلة معلما. وبعد اندلاع الثورة ألقي عليه القبض وفرضت عليه الإقامة الجبرية ببسكرة حتى الاستقلال، توفي في صيف 1979. وهو لسان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ورائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، له إنتاج شعري غزير. طبع ديوانه لأول مرة سنة 1967.

16- الإبراهيمي محمد البشير : آثار الإبراهيمي ج1، تحقيق وتقديم نجله أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1997.ص369.

17- آل خليفة (محمد العيد): الديوان ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، مطبعة البعث، قسنطينة، ط1، 1967. ص ص420-421.

18- المصدر نفسه، ص144

19- مينة حنا و العطار نجاح : أدب الحرب منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1976.ص34-35.

20- آل خليفة (محمد العيد) الديوان،ص339.

21- المصدر نفسه ،ص41.

22- الشيخ صالح يحي: شعر الثورة عند مفدي زكريا، ، دار البعث، قسنطينة، ط1، 1987. ص65

23- نقلا عن: خرفي صالح:شعر المقاومة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ت). ص34.

24 - آل خليفة (محمد العيد)، الديوان، ص13.

25- ابن سمينة محمد العيديات المجهولة (تكملة ديوان محمد العيد آل خليفة)، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 2013. ص42.

26- خرفي صالح: شعر المقاومة الجزائرية،ص266.

27- آشيل: اسم لمعمر فرنسي بالجزائر عدو ألد للإسلام والمسلمين نشر مقالات عديدة في جيدة(الديبيش القسنطينية) متحاملا فيها على الإسلام والمسلمين مدعيا أن القرآن كتاب مثير للحروب عنوان للهمجية.

28- آل خليفة (محمد العيد): المصدر السابق، ص85.

29- المصدر نفسه، ص86.

30- خرفي صالح: الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984. ص36.

31- تنسب الطريقة العليوية إلى أحمد بن مصطفى بن عليوة، التي أسسها في مدينة مستغانم سنة 1910.

32 - آل خليفة محمد العيد: المصدر السابق، ص122.

33- المصدر نفسه، ص122.

34- المصدر نفسه، ص123.

35- الخطيب أحمد: جمعية العلماء وأثرها الإصلاحي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985. ص241.

36- آل خليفة (محمد العيد)، المصدر السابق ص 205.

37- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

38- خرفي صالح: شعر المقاومة الجزائرية، ص270.

39- آل خليفة (محمد العيد)، المصدر السابق ص، 406.

40 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

41- سلمان نور: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1981. ص337.

42 - ينظر: الدقاق عمر: الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ، دار الشرق مطبعة جامعة حلب ، سورية، ط3. ص8.

43- آل خليفة (محمد العيد): المصدر السابق، ص84.

44 - المصدر نفسه،ص119.

45- ركيبي عبد الله: قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1983. ص. 41.

46- سعد الله أبو القاسم: محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، دار المعارف، مصر، ط2، 1968. ص ص 191-192

47- آل خليفة (محمد العيد): المصدر السابق، ص147.

48- المصدر نفسه، ص138.

49- المصدر نفسه، ص334.

50- ابن سمينة محمد: العيديات المجهولة (تكملة ديوان محمد العيد آل خليفة)، ص248.

51 - آل خليفة (محمد العيد) المصدر السابق، ص118.

52- المصدر نفسه، ن ص ن.

53- المصدر نفسه، ص121.

54- المصدر نفسه الصفحة نفسها.

55- المصدر نفسه، ص145.

56- المصدر نفسه،ص ص 251،252.

57- المصدر نفسه،ص 253.

58- المصدر نفسه،ص 110.

59- المصدر نفسه،ص 281.

60- المصدر نفسه،ص 279.

61- المصدر نفسه،ص430.

62- الرفاعي أحمد شرفي: الشعر الوطني الجزائري من سنة 1925 إلى سنة 1954، دار الهدى للطباعة والنشر و التوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2010 ص201.

63- دوغان أحمد: شخصيات من الأدب الجزائري المعاصر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989.ص29.

64- ابن سمينة محمد: المرجع السابق، ص225.

65- آل خليفة (محمد العيد): المصدر السابق، ص159.

66- المصدر نفسه، ص 231.

67- دوغان أحمد: المرجع السابق، ص16.

68- آل خليفة (محمد العيد)، المصدر السابق، ص371